تجلـي الصمت فـي « هـواجس غير منتهية »
لعبد الله أبي هيف

أ. عمار بشيري/ المركز الجامعي بميلة

ملخص:

عني الحوار باهتمام النقاد الذين اشتغلوا على الرواية والأعمال السردية عموما، فتناولوا تقسيماته وأنواعه وجمالياته؛ وها هو الصمت بدوره يلفت الانتباه بما احتواه من العناصر نفسها، وزاد على ذلك ما يتمظهر به من الغموض والفراغ اللذين يقودان إلى التأويل الفني للكشف عن دلالاته وإشاراته.

ولعل " هواجس غير منتهية" لأبي هيف تساعدنا على الكشف عن ذلك بوصفها مجموعة يحتل الصمت مساحة لا بأس بها من مقاطع متعددة من نصوصه القصصية.

Résumé :

Les critiques qui ont abordé le roman et les œuvres narratifs, ils se sont intéressés davantage au dialogue à travers ses subdivisions, ses types et ses aspects esthétiques. Ainsi, le silence, à son tour, attire l'attention, y compris d'être submergé par les mêmes éléments, et plus par son mystère et son vide, qui, tous, conduisent à l'interprétation pour détecter ses significations et ses allusions.

Les «Préoccupations non finis" d'Abu HIF nous aident peut-être à détecter tous cela, puisque le silence occupe une superficie pas trop mauvaise de plusieurs sections de textes narratifs.

OOO

مقدمـــة:

يحتل موضوع الصمت أهمية معتبرة لعلاقته المتينة باللغة مكتوبة كانت أم منطوقة، فهو يسبق الكلام ويعقبه بل يتوسطه ففيه إشكال لوقوعه خارج الحيز اللغوي.

ولما كانت القصة منجزا لغويا فإن الصمت يظهر فيها بأشكال متنوعة، وتميل بعض القصص إلى الصمت رغبة من ورائه إلى تحقيق غايات

فنية، ومن الأكيد أن البحث في قضية الصمت ومنه معرفة خصائصه ووظائفه يجعل عالم السرد (القصة) أكثر إدراكا.

ويرى بعض الباحثين جدية الدراسات المتعلقة بقضية الصمت لاسيما في السرديات الغربية والرواية على وجه الخصوص، كدراسة "هافال" (Pierre Van den Heuvel)[1]، وكذا ما جاء في مؤلفات "كامو" (Albert Camus)رواية " الغريب" "L'etranger" على سبيل المثال.

وقد اخترت "هواجس غير منتهية". وهي المجموعة القصصية الثالثة للناقد والقاص عبد الله أبو هيف[*]، والتي احتوت على تسع عشرة قصة في مائة وست وثلاثين صفحة من القطع المتوسط، والملحوظ أن الصمت احتل مساحة لا بأس بها من مقاطع متعددة من نصوصه القصصية؛ أما اختياري الخطاب السردي (القصة) فلأهميته وجودته وغناه فهو عبارة عن معدن قابل للدراسة من جوانب متعددة[2]بقطع النظر عن حقيقة جانبه الأدبي.

وقبل تناول تجلي الصمت في نصوص "هواجس غير منتهية" جدير بنا أن نعرف بالصمت وأحواله لغة واصطلاحا قديما وحديثا، وكذا عند المقرئين والبلاغيين واللسانيين وعلماء الخطاب والسينمائيين....

حد الصّمت:

في اللغة:

تعددت معاني الصمت في اللغة العربية، فقد ورد في لسان العرب: صَمَتَ يَصْمُتُ صَمْتًا وصُمْتًا وصُمُوتًا وصُمَاتًا، وأَصْمَتَ: أطَالَ السكوت. والتصميتُ: التسكيتُ والسكوتُ[3].

وفي الاصطلاح:

الصمت فَقْدُ الخاطر بوجد حاضر، وقيل سقوط النطق بظهور الحق، وقيل: انقطاع اللسان عند ظهور العيان[4].

وما يمكن استخلاصه من تعريف الصمت في لغة العرب، أنه نقيض الكلام والنطق أو هو عدم إبداء الكلام واختفاء التصويت.

الصمت عند المقرئين:

نجد أن الصمت لدى مقرئي القرآن يعبر عنه بالسكت، وهو قطع الصوت عن الكلمة زمنا يسيرا من غير تنفس، ويتوزع على أربعة مواضع من القرآن الكريم وجوبا[5].

وربما كان ذلك للإبانة عن المعنى السياقي للآية، كما في قول الله تعالى في سورة الكهف:" عِوَجًا قَيِّمًا " فالصمت يكون على ألف (عِوَجًا) ثم يواصل (قَيِّمًا)، إذ إن عوجا نقيض قيّم، فيكون (قَيِّمًا) مفعولا به لفعل محذوف تقديره "يجعل"، وليس صفة.فكلام الله قيّم لا عوج فيه، فأدى السكت اليسير وظيفة إبلاغية للمعنى المراد.

الصمت عند علماء اللغة والبلاغة:

توسعت بحوث علماء اللغة والبلاغة العرب القدامى حول موضوع الصمت، وقد اصطلحوا عليه "بالحذف"، إذ أولوه عناية كبيرة لأهميته في البيان والبلاغة، فهو باب البلاغة وقطب الرحى فيها وعليه مدار الإعجاز، لاسيما في كلام الله[6]، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق"[7].

وتطرق علماء اللغة إلى أسرار الحذف ومقداره وموضعه ودواعيه إذ أوضح "ابن هشام" أن الحذف يشمل الأدوات مثل الواو والفاء ... والمبتدأ والخبر وجملة القسم وجواب القسم وجملة الشرط وجواب الشرط...

وكانت نظرة علماء اللغة والبلاغة من منظور الإبلاغ والإبانة ومدى قدرته على ذلك أي الإبانة من النطق واختلفت نظرتهم إلى الصمت والحكم عليه من موضع إلى آخر، كمدح أحدهم الصمت في موضع وذمه في موضع آخر وذلك حسب ما يقتضيه مقام القول وحالة المُتَكَلِم والمُتَكَلَم.

ويظهر أن علماء البلاغة العربية يميلون أكثر إلى السكوت والإفصاح إلى بلاغة الإيجاز فمثلا "ابن المقفع" عدّ الصمت من البلاغة مقرا بقدرته على الإبانة والتعبير عن المقاصد، فقد قال: "البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت (...) ومنها ما يكون جوابا"[8].

والجاحظ يحبذ الصمت حينا والنطق أحيانا حسب مقام الكلام:" واعلم أن الصمت في موضعه ربما كان أنفع من الإبلاغ بالمنطق في موضعه وعند إصابة فرصته"[9].

ومن العرب من هو أميل إلى الصمت منه إلى النطق، فقد جاء في الحديث النبوي الشريف: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت". رواه البخاري ومسلم كما فضل عجز الإبانة في حال السكوت على عجز الإبلاغ في حال النطق "حي صامت خير من حي ناطق"، فعيب

الساكت خفي وعيب الناطق جلي. وكره الكلام إذا طال فالحاجة إليه تنتفي "الكلام يشبع منه كما يشبع من الطعام"[10].

"إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب".

فالصمت لا محالة مرتبط بالنطق، فالبحث في الصمت يفضي حتما البحث في النطق، وللإشارة فإن المتصوفة ينكرون وجود الصمت فـ"الصمت محال" [11]في رأيهم.

أما الدراسات الحديثة فقد أولت الصمت مكانة بارزة من خلال آراء متميزة ومتعمقة.

الصمت عند اللسانيين:

وإذا كانت اللسانيات ترتكز في دراسة اللغة على اللفظة والجملة، فبعض اتجاهاتها المستفيدة من العلوم الأخرى تعتني باللفظة والجملة والخطاب معا.

وهذا ما تناولته بالدراسة اللسانية "أوروكيوني" (Orecchioni)[12]، ولا ضرر في ذلك إذ اللفظة وما يطرأ عليها هي جزء من الخطاب، فلا مانع من الانتفاع بما ذهبت إليه "أوروكيوني" وغيرها ممن ركز على الخطاب في حد ذاته.

فهذه الباحثة توغلت أكثر في مكنونات الخطاب، فهي تهتم للضمني (implicite) والكناية (trope)، والاستعارة (Métaphore) والمعاني المهمتة(les sous entendus) في الجملة [13].

الصمت عند علماء الخطاب السردي:

ولم يعن النظار في السرد بقضية الصمت عناية شاملة، فاقتصرت بحوثهم في غالب الأحيان على علاقة الصمت بالزمن من الجهة التي تجعل الأحداث تسرع، فسرعة الأحداث تبلغ أقصاها في الإضمار (ellipse) الذي يكون بإسقاط جزء من الحكاية في النص[14]، ومما هو أيضا من قبيل الصمت في النص السردي ما يكون في وجهات النظر أو ما يسميه "جينات" تبئيرا من حجب المعلومات عن القارئ، كما هو الشأن في التبئير الخارجي (Focalisation externe) الذي يكتفي فيه الراوي بذكر ما يظهر من أحوال ويسكت عما وراءها من أشياء، وقد يمتنع الراوي أحيانا عن البوح في نقل كل

التفاصيل كما في التبئير الصفري، عند ذكر المعلومات، كما يسمي "جينات" ذلك حجبا سرديا (paralipse)[15] .

إن غياب نظرية متكاملة تدرس موضوع الصمت لا يمنعذلك من الانتفاع بكل ماله صلة بموضوع الصمت سواء ما كان في مجال اللغة والبلاغة وعلـم القراءات واللسانيات والفكـر عامة واستثماره في السرد لأنه منجز باللغة، واللغة متينة الصلة بالنطق من جهة، وبعدم البوح من ناحية ثانية.

ولعله الأجدر ههنا عرض مفهوم للصمت نتجاوز به التعريف اللغوي، فهو " عدم تحقق لعملية تلفظ يمكنها أو يجب عليها أن تكون في وضعية معينة"[16]فالصمت حسب "هافال" تلفظ غائب أو بالغياب (Un acte énonciatif absent) وهو خلاف النطق والكتابة المتمثلين في الصوت والخط فهو لا ينشئ ملفوظا لسانيا (un énoncé linguistique) وإنما يُدرك وجوده بعلامات في النص تشير إليه مثل الفراغ (vide) والغياب (Absence) والفجوة في الكتابة (interstices de l'écrit) وتخفيض حجم المقول....[17]

ومما يجدر ذكره هنا أن بعض النصوص السردية الحديثة تتعمد الحذف وتكثر من الغياب والبياض والهدف من ذلك هو تحقيق وظائف سردية ربما يعجز القول المثبت في النص عن القيام بها على أحسن وجه.

والمستخلص أن الصمت، بالنظر إلى اللغة هو وجود غائب يثبت حضوره بغيابه بيد أن وقوعه خارج اللغة لا يلغي صلته المتينة بها. فيغدو بذلك مكونا أساسيا للنص السردي يؤدي وظيفته كباقي المكونات المنجزة لغويا.

ونجد الراوي أو السارد يعبر عن الصمت بالفراغ أو الفجوات أو البياض أو الإخفاء أو السكوت حينا، وبذكر الصمت أو مشتقاته أو مدلولاته حينا آخر كما هو الشأن في قصة " هواجس غير منتهية" لعبد الله أبو هيف التي نريد إبراز رمزية الصمت فيها ودلالاته من تجليه فيها.

ومن ناحية أخرى فإن الصمت بوصفه مفهوما فلسفيا وجماليا، فقد يفرز لنا بناء لفظيا يشترك مع اللغة والفرد فيشكل أنظمة مشتركة في عملية إنتاج المعنى[18].

فهو قد يؤسس لبنية دالة وتأتي هذه البنية الدالة من خلال تقطيع المفردات الكلامية المتمثلة بالحركة والوقف والسكوت.

فقد يلجأ المتحاور إلى الصمت، ويمكن له أن يفهم وهو صامت، بل قد يكون الصمت أعمق دلالة من ثرثرة تغيب المعنى وتعطل الفهم، فالصمت- إذن- ذو مفهوم دلالي كما هو الشأن في النص المسرحي، وحتـى على خشبة المسرح المترجمة للنص المسرحي، يمتزج ذلك العرض، أزمنة للصمت، كإسدال الستار بين الفصول، والاكتفاء بالحركة والإشارة دون التلفظ، وهذا كله جزء صامت معبر يسهم في بناية النص.

الصمـــت والسينمـــا:

إن الناقد السينمائي –غالبا- ما ينصب اهتمامه على السيناريو وعلى شكليات الشريط الصناعي مثل الصوت والصورة أو على أداء الممثلين أو قضايا الإنتاج... غير أنه لا يلفت إلى لحظات الصمت في الشريط باعتبارها مكونا أساسيا للنص السردي المسموع. فالصمت في الحقيقة لغة عالمية تتنفس ضمن مشاهد الشريط الأساسية مخاطبة المتلقي ليتفاعل معها، وقد يدفعه ذلك إلى بلوغ أعلى درجات الإشباع والشعور بالارتياح.

وكلنا يذكر السينما في بداياتها على الرغم من أنها كانت صامتة إلا إنها أدت دورها الإبلاغي للمتلقي.

من هنا فإن الصمت في الشريط يشكل مع الحوار الحيز الزمني للفيلم، فهو بذلك يحسب ضمن مدة الشريط في إطاره الكلي المكتمل، وهو هو يشبه في ذلك الصمت ضمن المقطوعة الموسيقية (كالبرعة والزفرة وغيرهما...) أو علامات الحذف الشعرية التي تسعى إلى خدمة الصورة الشعرية.

فالصمت له لغته الخاصة به، ومساحته المرتسمة على سطح النص الملفوظ، فهو موجود أو غير موجود فله دلالته ورمزيته.

توزع الصمت في هواجس غير متهية:

"هواجس غير منتهية" مجموعة قصصية للناقد عبد الله أبو هيف احتوت على تسع عشرة قصة توزعت على مائة وست وثلاثين صفحة من الحجم المتوسط، باستثناء القصص السبعة التي كانت طوافًا وسفرًا إلى بلدان ومدن أخرى أو ما يسمى بـ" أدب الرحلات" فإن القصص الأخرى تناولت موضوعات اجتماعية بحته أو اجتماعية سياسية، وهذه المجموعة بشكل خاص

تنازعتها هواجس الكاتب، وتغلغلت لغة الصمت، وتكررت في منعطفات كثيرة من القصص.

فلا شك أن لهذا الصمت دلالة ليست اعتباطية عند أبو هيف، إذ نجد مفردة الصمت منذ القصة الأولى التي عنونها بـ" الصمت" مبثوثا بكل دلالته الحسية والرمزية بارزًا وحاضرًا في بقية القصص حتى في بعض قصص الرحلات.

ولنذكر نماذج من حالات الصمت التي أوردها أبو هيف قبل تحليل دلالاتها الرمزية: في قصة " الصمت" التي استهل بها الكاتب مجموعته القصصية يبرز عنوان " الصمت" شاخا صامتا، والعنوان في العمل الأدبي بوصفه علامة لسانية، يحيل إلى مضمون النص ويكشف بنيته الدلالية، فيشكل بذلك نصا موازيا للنص (المتن) بتعبير " جيرار جينيت"، وهو تقليد يطرد في النصوص الأدبية بمختلف أنواعها وتجنيساتها.

يبدأ عبد الله أبو هيف قصته: (الصالة مكتظة بالكتب والأرجل البطيئة والوجوه اللائبة في مكتبة قليلة الإضاءة....)[19].

فالصالة التي كان يقصد ها أبو هيف هي المكتبة، وهي دلالة أخرى على المكان المغلق الصامت، لا لغة إلا لغة عناوين الكتب المصفوفة على الرفوف الصامتة.

يترصد عنوان " الصمت" المجموعة القصصية، وهو لفظة مجردة نجدها تسند إلى المحسوس عبر سلسة الأحداث المسرودة العائمة في ثنايا القصص المتلاحقة التي يقدمها أبو هيف من خلال مجموعته القصصية وهذا يخلق نوعا من الإشكال يفضى إلى التأسيس لفعل القراءة، يدفع القارئ للبحث في العنوان محاولا فك شفرته اللغوية ما يخلق في العنوان دلالة عميقة تشتغل لصالح المؤلف الذي وضع من أجله، تدفع بالقارئ إلى استنطاق أسرار خطاب النص. إنما تتعدى دلالته هذا الأفق إلى داخل النص حيث يتعدى المعنى المعجمي إلى معان أكثر تشعبا وعمقا على طول المسار السردي، إذ نجده يشكل عنصرا أساسا ارتأى السارد أن يجعل منه نواة تنبني عليها النصوص المتتالية وتتنافى من خلالها دلالته.

فاستهل بصمت على صمت، صمت في المكان صمت في الأرجل، صمت في الوجوه، وصمت في الإضاءة، فعادة إضاءة المكتبة خافتة.

- (حضورا طاغيا لتلك الأحلام الصامتة أمام ضغوط العلاقة).

- (إن جسدي معزول وأنا معتادة على صمتي اليوم).
- (كان الصمت موحشا).
- (ولكنها للأسف تؤثر الصمت دائما).
- (تتسرب في بلاهة الصمت).
- (ساد الصمت ثانية).

في قصة " الخوف"[20]

- (ثم تصمت قليلا وتضيف).

في قصة "حنو بالغ"[21]

- (توقفت عن حركتها كأن خرسًا أصابها).
- (فصار الطفل يتعلم صمت جده وشرود نظراته).

في قصة "المحطة"[22].

- (فلا تشهد المحطة عندئذ إلا الصمت).

في قصة " أمكنة كثيرة"[23].

- (وثنايا العمارات المتناغمة في صمت جليل).
- (مشهد العمارات والبيوت الصامتة).
- (استمعت إليه صامتا).
- (عاودت الاستماع إليه صامتًا، ولا أرفع عيني عنه وعنها).

في قصة "أمكنة أخرى كثيرة"[24].

- (نظراته حائرة، ولا تستقر على حال، وهي صامتة).
- (ظل صامتا معتقدا أنه لا يفكر بهذه المسائل إلا عندما تواجهه، وضغط عليه).
- (كانا يتلهفان للحديث إليه، ثم قلت مع الزمن الكلمات، وصاروا ثلاثتهم يقضون الساعة أو الساعتين في الصمت).
- (كانت الكلمات قليلة غالبًا ثم يغرق المكان في الصمت).

«الرؤية 2» في قصة «رأيت فيما يرى النائم لنجيب محفوظ»[25].

- (وصمت، ولمحت الضيق الذي يلازمه).

في قصة " عند حافة الأفق"[28].

- (أولعلها الرفقة التي جعلتنا نلتم على الكلام أو الصمت لا فرق).
- (صمت طويلا، ونظر في الكتاب الموضوع على الطاولة..).
- (ها أنا ذا أخرج من الصمت إلى الصمت في فراغ لا متناه).

- (كنت صامتا مثل الكثيرين تتناهى إلى سمعي جملة شاردة من هذا وعبارة مرتفعة من ذاك).
- (لا حديث بيننا، فقد قيل الكثير في القاعات المكيفة، حسنة الإضاءة والصوت، غير أننا آثرنا ذلك الصمت).

في قصة " عتمته غافية"[27].

- (لربما كان طلب الصمت بحد ذاته مآثره هذه الاستراحة).
- (لو تعرفون كم هو غال علي هذا الصمت).
- (ينساب صوتها مع الصمت ونحن نغذ السير على أكوام أوراق ما زالت خضراء).
- (فلا يقطع الصمت إلا نجوى خافتة تهتز لها الصدور والأفئدة في رحاب هذه الغابة المتشابكة).
- (تجاذبنا طرفا من كلام ونبت الصمت على وجوهنا حفنة من مشاعر متكسرة على أطراف الكلام).
- (لو تعرفون كم هو غال علي هذا الصمت).

في قصة " رجال ونساء"[28].

- (لفة الصمت ولسعة البرد الخفية).
- (أطرقت هي في الصمت مثله).
- (صمتت ثم تمتمت وكأنها تناجي نفسها).
- (وبعد لحظات صامتة تغوص في الجهامة والنفس المتقطع).
- (ولم يستطع تبيين كلماتها صمت وغاصت في النشيج).
- (و لربما أدرك كل من حولهما هذا الأمر الذي وقعا فيه بصمت لا ينفع الإنكار، ولا يفيد التصريح).

في قصة " من يذكر أم قيس؟"[29].

- (ويصمت طويلا ثم تململ في جلسته، وغادر مقعده وهو يتمتم).
- (فينساب دمع غزير صامت على وجهها).

وفي قصته " هذا الوداع البشع"[30].

- (كان فاقد الحركة والنطق والإحساس).
- (ولطالما جررته للحديث دون جدوى، حين يدخلني معه إلى مدار صمته).
- (صار إلى صمتٍ لا ترشح من وجهة علامة أو إشارة).

وفي قصة " قانون اللحظة الخاطفة"[31].

- (لماذا وقفت في طريقي كنت صامتا أتأمل ملامحها الدقيقة).
- (وكانت تغوص في الكلام، وكنت أغوص في الصمت).
- (أنهكنا الحوار، والآن ينهكنا الصمت، فيا له من وداع!).

وفي قصة " مراثي الوقت"[32]

- (استطرد بعد صمت).
- (ثم غرقنا في الصمت).
- (كنت صامتا، وكانت صور مضيئة تبرق في غيوم داكنة).

بعملية إحصائية نجد لفظة "الصمت" أو مشتقاتها وردت في اثنين وخمسين موضعا من مساحة المجموعة القصصية " هواجس غير منتهية" باستثناء خمس قصص ذات العناوين التالية:« رحيل إلـى البحر لزكريا ثامر»، «أجنحـة صغيرة»، «مجـرد لحظات»، « الاحتفال» و« مونولوغ ومونولوغ مضاد».

ناهيك عن ذكر بعض المعاني كمرادفات للصمت وهي كثيرة الورود، فقد تكرر في مفاصل القصص وتسرب وتداخل مع أحداثها (القصص) وهو يأتي بمواقف مختلفة، أحيانا تصمت الشخصيتان الرجـل والمرأة، أو يصمت أحدهما، ففي قصة " هذا الوداع البشع" دليل على ما نقوله في هذا المقطع: "لم ينبس ببنـت شفة نال منه الصمت الحزين والجريح كل منال، فعزم دون رجعة على خيار العزل الاختياري، وكأنه يدغـم فـي سبـات اللحظة، على أنـه قفـز مـن سباتـه مفترقا عن عذابه إلى عذاب أشد"[33].

في هذا المقطع لم يكتف بالصمت، فالتعابير الدالة عليه هي " لم ينبس ببنت شفة وخيار العزل الاختياري، وسبـات اللحظة، قفـز مـن سباتـه". فهـذا يوحي إلى لغة الصمت ودلالاتها في السرد عند أبو هيف.

فـي الحقيقـة التساؤلات تكاد لا تنقطع عن دلالات الصمت وطغيانه في نصوص هذه المجموعة، فعلى سبيل المثال، العجوزان اللذان يجلسان في الحديقة وصل بهما الأمر أن يقضيا وقتهما صامتين، حتى عندما مـات أحدهـمـا منـع الآخر نفسه من الخروج وألتزم الصمت وجاءت العبارة "ولا يتكلم أبدًا[34]ويرى القاص أن فـي الصمت تفكرا وتأملا، ولهذا كان يؤثره عـن الكلام، وهو شيء غالٍ بالنسبة له، " لو تعرفون كم هو غالٍ عليهذا الصمت" هذه العبارة تكررت مع القاص في موضعين غيـر بعيدين عـن بعضهما البعض، فغلاوة هـذا الصمت دفعتـه أن يعنون إحدى قصصه "الصمت"

مفتتحا به مجموعته القصصية في صمت ذلك الصمت الذي يمتد كخيط سميك من أول سطر لأول قصة إلى آخر سطر أو يكاد للقصة الأخيرة هذا الصمت الذي ارتسمت ملامحه في لوحات القصص، فكان عنصرا فاعلا لمكوناتها، وركنا أساسا من أركانها.فاحتل بذلك تبئيرا مميزا للهيكل العام للقصص، فهو يتنفس من خلال مساماتها.

دلالات الصمـــت عنـــد أبو هيـــف:

لماذا كان أبو هيف مصرًا على الصمت؟ ماذا أراد أن يبلغه للمتلقي من خلال مدارج الصمت المبثوثة في أغلب قصصه؟.قد نجد إجابة لهذه التساؤلات علها تقنع المتلقي!.

قبل ذلك نتدرج شيئا فشيئا مع العلامات النصية للهيكل العام للمجموعة القصصية لأبو هيف.

دلالة نصية لصورة الغلاف:

غلاف الكتاب الحاوي لهذه المجموعة القصصية، يغلب عليه اللون الأسود، الذي يدل على الحزن والضيق والقلق اللا متناهي، يتوسط هذا السواد إطار بخط أبيض رقيق، وملامح وجه غامضة يعلوها لون أبيض داكن، يحتفرها عنوان المجموعة القصصية " هواجس غير منتهية" بلون أحمر قان، لون النار والدم، فهو يسبب الإحساس بالحرارة، وزيادة الانفعال لهذا يسبب ضغطا دمويا وتنفسا أعمق، فله تأثير قوي على طباع ومزاج الإنسان، فصورة الغلاف توحي عن مكنونات النصوص القصصية المبثوثة بين دفتي الكتاب.

اشتغال دلالة العنوان:

نتوقف بداية عند العلامة اللغوية لعنوان المجموعة القصصية" هواجس غير منتهية" فهو عنوان لافت للانتباه ذلك أن مفرده (هاجس) تتضمن على المستوى النفسي ما يشير إلى أن ثمة قلقا مستمرًا صامتا تعاني منه شخصية ما، وهذا يعني أن الهاجس فعالية نفسية تتسم بالديمومة والانطواء المفضي إلى الصمت، وهذا القاص إمعانًا منه في تصوير وطأة الواقع الذي تكابده شخصياته يضيف إلى مفردة هواجس صفة " غير منتهية" لأن الهواجس التي تعانيها شخصياته لا تعرف نهاية، مهما كتب لها من النجاح في خاتمة حياتها، وإن العلامات اللغوية لنصوص المجموعة أيضا تفرز تلك السمة المميزة لعنوان المجموعة.

إذ يمكن ملاحظة ذلك في العنوانات الآتية الدالة على وطأة الواقع الذي تكابده الشخصيات كل ذلك في صمت تام، من هذه العنوانات " رحيل إلى البحر" لزكريا ثامر و" رأيت فيما يرى النائم" لنجيب محفوظ، فهذان العنوانان يضمران دلالة الصمت المنبعثة من رحيل البحر وعفوة النائم المثقل بجندل الصمت.

فهناك دلالة انسجامية معبرة موحية تبين مدى ارتباطه واتصاله بالمحتوى، ثم إن هناك دلالة ارتدادية في المحتوى أيضا تتصل بالعنوان من خلال ملفوظات دلالية أخرى، مبثوثة في النص على غرار العنوان الرئيس.

كما يلاحظ أن البنية الدلالية للعنوان انفجرت متشظية في النصوص القصصية، على الرغم من اختلاف عناوينها الفرعية إلى بنى دلالية تحيلنا بدورها إلى سيميائية النص القصصي لغة الصمت، فكل الملفوظات كائنات لغوية دلالية، أثثت الحقل الدلالي في هذا الفضاء النصي.

رمزية الصمت عند أبو هيف:

إذا غصنا في ثنايا المجموعة القصصية أدركنا أن الصمت محاولة لمشاركة القارئ في عملية النظم من خلال توظيف خياله في استنطاق المسكوت عنه لا سيما في تلك الشخصيات التي وظفها أبو هيف في قصصه، والتي تبدو هامدة بصمتها فهي معادلة يكون فيها الصفرذا قيمة افتراضية، ينطلق من خلالها السارد والقارئ من نقطة واحدة، من غير أفكار مسبقة، بل تنمو الأفكار شيئا فشيئا من خلال عملية القراءة.

كما نجد الصمت في هذه القصص مشحونا بإغراءات استنطاق مخبوءاته، بل لكونه الملجأ الأكثر فاعلية للحفاظ على ما تبقى مما يمكن الحفاظ عليه لمواصلة العيش عبر سلوكيات معينة، فالصمت عند أبو هيف نفي ومنفي، وهـو أيضا مقاومة ناعمـة، وأحيانا يكـون أبلغ من الصراخ، وبما أن الصراخ، وهو لغة هوجاء لم يَعُد يُثمر في الزمن التعيس.

فضل أبو هيف الصمت، فهذا الأخير -أي الصمت- يعلـم حسـن الاستماع الذي يفقده كثيرون، وهو يمنح صاحبه طاقة قوية للتفكير بعمق في كل ما يحصل حوله والتركيز بعقلانية على الإجابة.

فالصمت كما يبدو عند أبو هيف فلسفة لا تمثل العدمية، فهو شبيه باللون الأبيض الذي يعتقد فيه تمثيلا للعدمية، بَيْدَ أن الحقيقة هو أساس الألوان ومجمعها، فهو يختزل الألوان، وهكذا الصمت يختزل الكلام المتعدد،

والمخالف، كالثلج الذي يغطي الأشياء فتبدو بلون واحد، فالثلج هنا يختزل التعدد لكنه لا يلغيه.

فباستذكار ما تقدم من نماذج لحالات الصمت يمكننا الوصول إلى عدة أبعاد قصدها القاص عند استعماله الصمت كرمز أو دلالة، فالصمت كما سبقت الإشارة إليه في بحثنا يكون أبلغ من الكلام، لأن اللغة المشاعة قاصرة عن الوصول إلى الهدف المنشود.والصمت قد يكون احتجاجًا على موقف أو رفض، والصمت هو تعبير نفسي عن عدم القدرة على الفعل أو الانفعال الذي يدفع الإنسان إلى اللجوء إلى الوحدة والانعزال، فيكون هذا الصمت أكثر سحرًا من الكلام، ويكون أكثر نفاذًا إلى أعماق النفس، فقد يضيع الكلام الدهشة والقدرة على التأمل، على عكس الصمت الذي يبعث على التأمل، فيحلق مع الشعور إلى مدارج الحلم النبيل، الحلم الذي لا تكسره هشاشة الكلام ورتابة الحديث وثرثرته.

الصمت عند أبو هيف مقدس وهو غير متناهي الشعور، كما الشيء المقدس، الذي تمجده وأنت غير قادر على الإحاطة بحدوده، فليس اعتباطيا أن حمل مجموعة قصصه اسم " هواجس غير منتهية" والهواجس غير مرئية وغير مسموعة، فهي أشبه ما تكون بالصمت، هذا الصمت المحشو بطلاسم ذات رموز غير مفهومة في مجملها.

فقد كانت شخصيات القصص تتستر وراء حجب الصمت، لا تريد كشف وجهها الحقيقي، مفضلة الغرق في غيابات الصمت، منطوية على هواجسها نائمة فيها.

هذا كل الصمت بوضوحه وغموضه، بوقاره وجلاله، بكبريائه بسرياليته وكل أشيائه اللانهائية، تركها أبو هيف للقارئ يكتشف من ورائها ما يشاء من دلالات.

الخاتـــمـــــة:

في خاتمة بحثنا هذا نخلص إلى نتائج متمثلة في:

- الصمت أمر مقدس عند القاص أبو هيف.
- طغيان الصمت في أكثر قصصه، حتى احتل موقعا مميزا خاصا به.
- يمثل الصمت بؤرة من بؤر الخطاب التي تكون صورتها الظاهرة في اللفظ الممتلك لمضمونه الدلالي المتفق على مدلوله ضمنيا، أو بالأحرى فهو يمثل الوجه الثاني للملفوظ المختفي تحته.

- يبقى موضوع الصمت يستهوي كثير الدارسين والباحثين سواء في السرديات أو اللسانيات أو السميائيات، لأجل استنطاق مدلولاته.
- تحول الصمت إلى علامة تموج بالصخب والحركة والثورة التي تهدف إلى إرباك الذات، باعتباره كلام الذات للذات.
- وفي الأخير يظل الصمت قضية إشكالية تحمل مجالات دلالية واسعة ولا متناهية، سيكتشف القارئ ما شاء من دلالات.

هوامش:

1. Pierre Van den Heuvel, parole, mot, silence, librairie josé corti, 1985- p. 75

*: ناقد وقاص سوري له ما يقارب أربعين كتابًا موزعة على موضوعات النقد الأدبي والمسرحي والقصة وأدب الأطفال، من مواليد 1949 بالرقة بسوريا.

2. محمدالباردي، إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، مركز النشر الجامعي، تونس 2004، (فصل) الخطاب الواقعي الجديد ص 193 و ص 225.

3. ابن منظور جمال الدين محمود بن مكرم، لسان العرب، دار بيروت، 1997 ط[1] الأولى، مادة (ص،م،ت) ص 68.

4. المناوي زين الدين محمد عبد الرؤوف،التوقيف على مهمات التعاريف. ت: عبد الحميد حمدان، دار عالم الكتب، القاهرة، 1410، 1990، ص 219.

5. ابن الجزري، أبو الخير محمد، النشر في القراءات العشر (باب السكت على الساكن قبل الهمز وغيره)، ص 426.

6. ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ط[1] مكتبة القاهرة، مصر 1389 هـ- 1969 م، ص 112.

7. ابن هشام الأنصاري، جمال الدين بن محمد، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ت وشرح عبد اللطيف محمد الخطيب، الكويت، ط الأولى 1423 هـ - 2002 م، ج[6]، ص 317 و ما بعدها.

8. الجاحظ عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر، ج I ص 166

9. الجاحظ عمرو بن بحر، الرسائل، ت: عبد السلام هارون، دار الجيل، ط الأولى بيروت 1991، رسالة المعاش والمعاد، ص 113.

10. أبو سعيد عبد الكريم التميمي، أدب الإملاء والاستملاء، دار الكتب العلمية، ط I ، بيروت 1981، ص 67.

11. محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، مكتبة الثقافة الدينية، ميدان العتبة، د. م. د. ت، ج II، ص 180.

12. Catherine Kerbrat, Orecchioni, l'implicite (linguistique) Armand colin, Paris, 1986, P 39, P 93, p 164, p 250…

.13. Ibid, p 39

14. محمد الخبو، الخطاب القصصي في الرواية العربية المعاصرة، جامعة صفاقس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الباب الأول: الخطاب السردي: مسألة الزمن القصصي، الفصل الثاني: سرعة السرد، ص 135.
15. Gerad Genette, Figures III (Collection poétique), Ed seuil, Paris, 1972, 24 durée : Éllipse, p p 129- 130.
16.Heuvel, parol, mot, silence, op, cit, chapitre II, compléments théoriques, p67.
17. Ibid, p 72.
18. سافرة ناجي، الصمت في الأدب المسرحي المعاصر" اللامعقول أنموذجا"، دار الينابيع، دمشق 2011 ص 41.
19. عبد الله أبو هيف، هواجس غير منتهية، ط1، مطبعة الأمل، دمشق 2004، ص 7.
20. المرجع نفسه ص 14.
21. المرجع نفسه ص 30.
22. المرجع نفسه ص 41.
23. المرجع نفسه ص 44.
24. المرجع نفسه ص 55.
25. المرجع نفسه ص 62.
26. المرجع نفسه ص 69.
27. المرجع نفسه ص 84.
28. المرجع نفسه ص 91.
29. المرجع نفسه ص 100.
30. المرجع نفسه ص 108.
31. المرجع نفسه ص 116.
32. المرجع نفسه ص 125.
33. المرجع نفسه ص 158.
34. المرجع نفسه ص 58.